في مقدمات استئناف علم الكلام

ذ. لشقر محمد
عضو فريق البحث في الفلسفة الإسلامية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة مولاي إسماعيل
مكناس

مقدمة:

نسائل ونعالج في هذه المقالة علم الكلام الذي تشكل تاريخيا في عداء مع الحنابلة المتعصبين، والذين اعتقدوا أن الكلام الإلهي مكتف بذاته وأزلي وغير مخلوق.ففي الوقت الذي كان فيه الحنابلة ضد بناء أي خطاب حجاجي انطلاقا من النص، عدد المتكلمة الحجج والأدلة المستنبطة المدافعة عن الدين. ([1])من حيث البناء، ننبه على أن اشتغالنا سيتوزع بين لحظتين، الأولى هي توصيف تاريخي لمسار الكلام، والثانية عبارة عن دروس تاريخ الكلام، حيث سنتوقف في مستوى أول عند بعض الملامح التي دمغت، في تصورنا،علم الكلام القديم بوسم لم يزل، ثم في مستوى ثان عند الصور الممكنة للكلام الجديد. إن التوصيف الجيد لتاريخ الكلام، في اعتقادنا المتواضع، قد يمثل المدخل الممهد الأمثل لاستئناف القول الكلامي([2]). كخيارات منهجية أقول عن هذه الورقات أنها، تتخذ من الوصف سبيلا لبناء

[1]- Gardet Luis, Anawati M. M. *Introduction à la théologie musulmane, essai de théologie comparée*, Librairie philosophique Vrin, Paris, 1948, p. 4.

[2] - نعتقد من جانبنا أن التوصيف التاريخي الجيد لعلم الكلام قد تحقق في الدراسة الوافية للباحثين غاردي وقنواتي حول فلسفة الفكر الديني، والتي اعتمدناها في هذه المقالة مرجعا وإطارا لعرض المعطيات التاريخية المرتبطة بعلم الكلام. بيد أن هذا الأمر لا يفيد الاستكانة إلى ما وصلا إليه من نتائج وما سجلاه من ملاحظات، وهي المعطيات التي سنقف عليها في حينها لاحقا.

مقاربة استشكالية، كما لا تطمع لتقديم أجوبة بقدر ما ترسم سبلا ممكنة ومحتملة لاستئناف القول الكلامي مجددا في فضاء الثقافة الإسلامية.

1. توصيف تاريخي لمسار علم الكلام:

الثابت تاريخيا أن جزيرة العرب لم تكن تملك سوابق ثقافية إذ لا وجود لتقليد ثقافي حضاري راسخ في جزيرة ما قبل الإسلام، وذلك خلافا لما كان عليه حال المسيحية التي ولدت في سياق هيليني خالص حيث أن لقاء الإنجيل وأفلاطون والحكمة القديمة قد تم حتى قبل ظهور المسيحية([3]). لذلك نسجل أنه انطلاقا من القرآن الكريم، كان هناك مسار تشكل تدريجي "للعلوم الإسلامية" التي ظهرت في المدينة([4]).

إذا كانت المسيحية منفتحة منذ ميلادها على الفكر اليوناني والقانون الروماني، فإن القرآن بالنسبة لناقله يقدم نفسه كعودة للحنفية الإبراهيمية وللرسالة الإلهية الأصيلة. زيادة في البسط نقول أنه لفهم القرآن، بوصفه خطابا إلهيا مطلقا، لا يجب العودة لتشريعات سابقة غير معترف بها سواء كانت ديانات أو فلسفة. في مجاله الحيوي الخاص، وعلى أرضه الخاصة، وتوافقا مع جوهره وتوجهاته التي ولدت معه، ووفق مقولاته وحدوده، بدأ الفكر الإسلامي في تشييد (من خلال/ وحول) القرآن ما يصطلح عليه "العلوم الإسلامية". باستثناء الأمثال والشعر، فالأدب العربي في شقه النثري الشاسع عرف انطلاقته مع القرآن وارتبط بالإحالة عليه. ([5])

في صورة لافتةتكشف عن مدى أهمية النص المقدس وأولويته في الثقافة الإسلامية، تناسلت العلوم الإسلامية لتشكل نسيجا يلف القرآن، حيث ابتكر النحو من طرف غير العرب (سيبويه) ليقرؤو بشكل سليم هذا النص المقدس،ثم جاءت البلاغة لوضع الأصبع على جماليته. أما علم الحديث فقد جمع ليتكلم حيث صمت هذا النص المقدس.كما صيغ الفقهليجعل

---

[3]- Ibid, p. p. 22-23.
[4]- Ibid, p. 21.
[5]- Ibid, p. 24.

مبادئ الحياة الأخلاقية والاجتماعية أكثر تناغما ونسقية، على أن يظهر الكلام أخيرا ليدافع عن العقائد الدينية ضد نفاتها.([6])

في إطار تاريخي مخصوص([7])،يمكن تقسيم مراحل تطور علم الكلام بتبسيط إلى عدة مراحل ننتقي منها ثلاثة نتوقف عندها لأننا نرى مدى إفادتها في ما نحن بصدده، وهي كالآتي:

أولا، مرحلة ما قبل التشكل بالمدينة. ثانيا، مرحلة الاختمار أو اللقاء مع اللاهوت المسيحي. وثالثا، مرحلة اللقاء مع الفلسفة أو صراع المعتزلة مع المحافظين، والذي توجتبانتصار الأشعرية.([8])

أ. مرحلة ما قبل تشكل علم الكلام:

اتسمت مرحلة ما قبل تشكل علم الكلامبالدراسة التوضيحية الحرفية للنص المقدس، إذ لم يحفل المسلمونبدراسة محتواه الفكري والمشكلات التي يطرحها ([9]). كان من الأولى والضروري في البداية قراءة القرآن بشكل سليم، فظهر علم الجيل الأول من الحفاظ والقراء، وهو علم القراءات. لم يكن مصحف عثمان محل إجماع حين جمعه لعدة اعتبارت موضوعية

---

[6]- Ibid, p. 24.

[7]- Ibid, p. 24.

من معالم هذه المرحلة التاريخية نذكر: الهجرة النبوية، يثرب عاصمة الدولة، الرسول قائد سياسي وديني في الآن نفسه، الخلفاء الراشدون، انتقال الدولة الإسلاميةإلى الشمال مع الأمويين.ننبه على أنه وخلال قرن واحد (ما بين 40هـ و132هـ) تغرب الإسلام عبر اتصاله بالمسيحيين السكان الأصليين للشام، حيث تم استيراد النموذج الإداري البيزنطي والفارسي. خلافا للأمويين الذينانتصرواللعنصر العربي قام العباسيون بنزعة تقوية ضد العرقية، وانتصروا للعقيدة الإسلامية والعناصر الفارسية المشرقية، حيث اقتسموا مع الآخرين من بويهيين وسلاجقة ثروات الإمبراطورية الشاسعة. من جهة أخرى في مقابل بيزنطة العاصمة الثقافية للمسحيين، مثلت بغداد عاصمة الثقافة بالمشرق، أما في الغرب فقد تم تعريب شمال إفريقيا وفتح الأندلس.

[8]- Ibid, p. 26.

يرى كل من قنواتي وغاردي أنه من الممكن تقسيم مراحل تطور علم الكلام إلى سبعة مراحل، وهي: 1. مرحلة ما قبل التشكل بالمدينة، 2. مرحلة الاختمار أو اللقاء مع اللاهوت المسيحي، 3. مرحلة البطولية أو اللقاء مع الفلسفة المسيحية، والتي تميزت بصراع المعتزلة مع المحافظين، 4. انتصار الأشعرية، 5. انتقائية الغزالي وظهور طريقة المتأخرين، 6. مرحلة المحافظة الجامدة، 7. مرحلة التحديث أو الإصلاح. لكننا، من جانبنا، إمكانية اختزال هذا التقسيم السباعي إلى آخر خماسي فقط اعتقادا منا أن هناك قاسما مشتركا ينظم المراحل الثالثة والرابعة والخامسة، وهو نضج القول الكلامي ووعيه بذاته، مما دفع به قدما إلى تحقيق تراكم مهم طال المستويين النوعي والكمي على السواء.

[9]- Ibid, p. 26.

للتوضيح نقول إذا كان القديس بولس الذي انتمى لطائفة يهودية عرفت بالتزامها واحترامها لتعاليم موسى وأنبياء بني إسرائيل، قد تغذى على أسفار العهد القديم ليكتشف في نفسه رغبة ملحة في أن يعيش تجانسا بين حياته الفكرية والروحية وما جاءت به رسالة الإنجيل، فإن صحابة الرسول، خلافا لذلك، كانوا في حل من أي التزام سابق نسبيا، حيث اجتهدوا في تطبيق الرسالة الجديدة في غياب أي ثقل كان من الممكن أن يمارسه تراث حضاري قديم. (Ibid, p. 26)

منها صعوبة الكتابة العربية، وغياب النقط للحروف، وغياب علامات الترقيم، لذلك سيتم ترسيم سبع قراءات مرخص بها([10]). وفي ارتباط بذلك، جاءت المدارس النحويةلاحقا لتؤكد الاختلافات في قراءات كل قطر (مكة، المدينة، البصرة، الكوفة) ([11]).

من جهة أخرى، وبحكم أن القرآن مكون منجزء محكم قطعي الدلالة وجزء متشابه ظني الدلالة، اضطر المفسرون الأوائل مع هذا الوضع إلى البحث في أسباب نزوله، ثم البحث في الشعر ديوان العرب، فكانت النتيجة ظهور تيارين في علم التفسير: التيار الأول هو التفسير بالمنقول، والتيار الثاني هو التفسير بالرأي. وقد كان لهذا الاجتهاد أن يلعب دورا مهما في توجيه الكلام لأن معركة الكلام هي بالقصد معركة حول تفسير وتأويل معاني النص القرآني.

لعل من الممكن إضافة تيار ثالث إلى تيارات التفسير الإسلامي، هو تفسير أهل الكتاب، حيث تسللت الإسرائيليات عبر دخول يهود ومسيحيين للإسلام، حيث،وليثير الوعاض والقصاص الورع والتقوى في نفوس السامعين، اعتمدوا قصصا وأساطير تحولت إلى فلكلور خاصة ما تعلق باليوم الآخر. ([12])

لم يكن هذا الاجتهاد نظرا كلاميا لغياب التفكير الفلسفي وغياب تقليد ثقافي سابق، إذلم يتلمس المسلمون خلال هذه الفترة القصيرة (حوالي خمسة وعشرون سنة فقط) الصعوبات العقائدية التي يثيرها النص المقدس. حتى تظهر للوجود تلك المشاكل الحقيقية، كان على المسلمين أن يجروا لقاء حميميا مع أشخاص آخرين مخالفين لهم في المعتقد، والذين حول نقط عقائدية مهمة مارسوا نظرا وتأملا خصبا، وهذا اللقاء كانت بلاد الشام وبلاد الرافدين مسرحا له، وخاصة دمشق.([13])

ب. مرحلة الاختمار أو اللقاء مع اللاهوت المسيحي

في البداية، لم تكن عقائد الإيمان والعمل والسلطة قد صيغت بعد، لذلك ستضع الاضطرابات السياسية التي شهدتها مرحلة الخلفاء الراشدين الأصبع على مسألة تطبيق

---

[10]- Ibid, p. 28.
[11]- Ibid, p. 29.
[12]- Ibid, p.p. 29-30-31.
[13]- Ibid, p. 31.

عناصر عقائدية في أرض الواقع السياسي. وعليه ستتسع دائرة الخصومة بين الفاعلين في هذه المرحلة من مجال التدبير السياسي إلى مجال العقيدة، لينقسم المسلمون طوائفا وفرقا. ([14])

من جانبهم، رفض الخوارج التحكيم أولا، ثم عارضوا حكم الأمويين الغاصبين للسلطة في نظرهم ثانيا، لذلك جاء حكمهم على مرتكب الكبيرة،والمتمثل في الخلود بجهنم والطرد من جماعة المسلمين، منسجما مع موقفهم السياسي من علي ومعاوية. أما الشيعة، وهم المناصرون لعلي حتى بعد واقعة التحكيم، فقد واصلوا بعد مقتله ولاءهم لآل البيت مشكلين معارضة قوية لنظام الحكم الأموي. بعد صراعمرير مع بني أمية، شرع فيه الشيعة أسلوب التقية، سيعتقد هؤلاء أنهم انتصروا بمساعدتهم للعباسيين لبلوغ الحكم، لكن سرعان ما سينقلب عليهم بنو العباس ويضطهدوهم بقسوة. خلافا لهذين الفريقين، عقائديا، وفي سياق سياسي يقابله علاقة الإيمان بالعمل، سترجئ المرجئة حكم مرتكب الكبيرة لله وحده الذي يعلم ما في الصدور، لأن ارتكاب الكبائر لا يبطل الإيمان، والذي هو بطبيعتهمستقل عن العمل. من تم، سياسيا، كان الواجب في عرف المرجئة طاعة الأمويين. ([15])

إن نقل العاصمة إلى دمشق كان سببا في اللقاء مع اللاهوت المسيحي، فدمشق كانت مختلفة تماما عن مكة والمدينة حيث قلة تعرف الكتابة والقراءة، إنها أجمل مدن الشرق آنذاك، وثاني عاصمة من عواصم المسيحية.بعد الفتح الإسلامي ترك العرب خمسة عشر كنيسة مفتوحة، وضمنوا حرية ممارسة الشعائر للمسيحيين، بل كان قصر الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك مجاورا لكنيسة. كما ننبه على أنه خلال فترة الفتح هاته بالذات عاش أحد الآباء المسيحيين الكبار الدمشقيين، وهو يوحنا الدمشقي. لقد دفع تعريب البلد السكان المسيحيين الأصليين للاختلاط بالفاتحين، حيث ضم معاوية العديد من المسيحيين لخدمته، ونذكر منهم: أول طبيب له، وزيره في المالية، مؤدب أخيه، وشاعره المفضل الأخطل. ([16])

لم يكن التبادل بين المسلمين والمسيحيين حكرا على المستوى الاقتصادي والإداري، بل الديني والفكري أيضا، حيث انتبه المستشرق الفرنسي الكبير لويس ماسينيون Luis

[14]- Ibid, p. 33.
[15]- Ibid, p. 34.
[16]- Ibid, p. 34.

Massignon في دراسته لمعجم التصوف لعملية التهجين التي حصلت بين الوسط المفتوح (دمشق)، والدين الفاتح (الإسلام)، خاصة ما تعلق بمصطلحات اللاهوت والزهد التي تشي بوجود تقابلات بنيوية بين التأملات الممارسة حول الجنة والنار.لمدة قرنين إذن، ساد نظام حياة مشترك بين الفريقين تم خلاله استنساخ هندسة الصوامع، كما شهد زيارات متصوفة مسلمين لنساك مسيحيين لاستشارتهم في إشكالات لاهوتية. هذا الوضع سيجعل عددا كبيرا من الأعمال البدائية في الإسلام الزاهد عبارة عن نقل حر لأعمال مسيحية.لقد امتاز القرن التاسع الميلادي بمناخ ثقافي غني ومعقد جدا، من سماته ذلكالتعايش بين المسيحية واليهودية، والذي لم ينتج نقاشات عقائدية حقيقية، حيث تفاعل اللاهوت المسيحي، من جانبه، مع الزرادشتية التي تؤمن بإلهين أحدهما للخير والآخر للشر، خلافا لعقيدة التوحيد الإسلامية الحارقة، والمؤمنة بإله واحد هو مصدر الخير والشر معا.([17])

خلال القرن الثامن الميلادي شهدت بلاد الشام نشاطا سجالياساخنا لآباء مسيحيين كبار نذكر منهم يوحنا الدمشقي وتلميذه ثيودور أبو قرة. أولى يوحنا الدمشقي اهتماما كبيرابمسألة القدر، وقد نبه كل منغارديGardetوقنواتي Anawati على تشابه طريقة تناوله لمسألة القدر لدى هؤلاء مع طريقة القدريين المسلمين الذين سوف يشكلون مجموعة كبيرة مؤثرة استطاعت الانقلاب على الوليد أحد الخلفاء الأمويين،وتنصيب أحدهم على عرش الخلافة. وفق هذا المنظور كان القدرية أول من أقحم في الإسلام نشاطا عقليا تأمليا، والذي خلال سنوات، سيشمل، إلى جانب الجبر والاختيار، عناصر عقدية عديدة. ([18])

نخلص جزئيا في هذا المستوى إلى أنه ليس من باب المبالغة القول بأهمية هذه المعطيات والعلاقات الثقافية المختلفة في تشكيل صورة الكلام الإسلامي.

ت. مرحلة اللقاء مع الفلسفة اليونانية:

كان خلفاء دمشق ساسة أكثر منهم قادة روحيين منشغلين بثقافة الكلام، لذلك لم تشجع حينذاك النقاشات الدينية بين المسلمين والمسيحيين بشكل رسمي. لكن مع مجيء العباسيين إلى الحكم

[17]- Ibid, p. 36.
[18]- Ibid, p. p. 37-38.

ستكون الظروف السياسية أكثر تأثيرا في مسار علم الكلام خاصة مع انتصار العناصر المشرقية الفارسية وشيوع تقاليد الزهد والورع.([19])

اتسمت مرحلة الخلافة العباسية بثلاثة أمور مؤثرة في صورة الكلام، وهي: أولا تأسيس مدارس النحو، ثانيا تطور مدارس الفقه، وثالثا ترجمة الأعمال اليونانية.في مسار تشكل مدارس النحو العربي نؤكد على أن النقاشات النحوية لم تكن مجرد تمارين ذهنية حول ظاهر نحوية (فاعل أو نائبه، نعت أو بدل) بل كانت تلك النقاشات مؤثرة في تأويل النص المقدس. لقد قدم النحو المدروس بدقة لأهل الجدل المتكلمة إطارا ومقولات ومعجم سيوظف وسيعطي للكلام صبغة خاصة (مفهوم الفاعل مثلا).الملاحظ أن تلك الخلفية النحوية قد أغنت الكلام الإسلامي خلافا للاهوت المسيحي، حيث أضحى المتكلم نحويا بالضرورة. ([20])

أما بالنسبة لتطور مدارس الفقه،فما يهمنا في مسار تشكله وتطوره في ارتباط بعلم الكلام هو مكانة المنطق في النقاشات الفقهية خاصة عند أنصار الرأي، وهو منطق يرتكز على/ أو يختزل في القياس. هذا التحول الفقهي كان مؤثرا في الكلام حيث اضطر المتكلم قبل الخوض في علمه أن يتلقى تكوينا فقهيا، وبالتالي التعامل مع المناهج الجدلية الفقهية. ([21])

لكن أكبر مؤثر في مسار الكلام، بعد اللقاء مع اللاهوت المسيحي في دمشق، كان هو اللقاء مع أرسطو وترجمة الفلسفة اليونانية التي كان بيت الحكمة فضاء لها، إذ تسللت طبيعيات وميتافيزيقا ومنطق أرسطو إلى الفكر الإسلامي فكان التأثير حاسما في علم الكلام ([22]). لقد خلق دخول الفلسفة اليونانية بإلزاماتها العقلانية عطشا كبيرا للمعرفة، ورغبة في تنسيق مجمل المعرفة الإنسانية، وفي سياق هذه السيرورة سيظهر الكلام كعلم مستقل ([23]).

---

[19]- Ibid, p. 40.

حدث مع العباسيين تغيير جذري على حالة الدولة الإسلامية، لأن مجيئهم للحكم ارتبط بالأساس بثورة الموالي. لقد ظهرت آنذاك حركة الشعوبية ضد اللامساواة، وحاربت الاستثناء العربي وانتصرت عليه، وقد تطور هذا الانتصار كعودة للإسلام الأصيل حيث معيار التميز الاجتماعي هو الزهد(لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى). لقد ناصر الخلفاء الجدد فكرة الدين على فكرة الوطنية، فاستقدموا إلى بغداد علماء المدينة لاستشارتهم باستمرار حتى في مسائل السياسة. كما تم ترسيم القرآن والسنة كمصدرينللتشريع.لذلك سمحهذا التغير للعلوم الدينية بالانطلاق في آفاق أرحبكماحدث مع علم الفقه مثلا (Ibid. p. 40).

[20]- Ibid, p. p. 41-42-43.

[21]- Ibid, p. 44.

[22]- Ibid, p. 45.

[23]- Ibid, p. 36.

خلال هذه الفترة، عاش المفكرون المسلمون لحظة وجد/سكر فكري أخذوا فيها بقدرة العقل، فأدلوا به لحل المشاكل الدينية بجرأة أحيانا وبتهور أحيانا أخرى، وذلك ضدا على المحافظين المتشبثين بحرفية القرآن والسنةمما أسهم في ظهور مفهوم البدع كمفهوم مواز لهما.إن الفكر التأملي الإسلامي قد تشكل بالضرورة في جدال وصراع مع البدع القادمة من الفرس والهند، بل ومن داخل الإمبراطورية الإسلامية حيث ارتفعت أصوات مفكرين أحرار سموا بالزنادقة. ([24])

لقد كان على المتكلمين مواجهة أدلة الخصوم، فكانت الصورة البدائية للكلام بظهور المعتزلة، والذين معهم امتلك الفكر الديني الإسلامي لأول مرة في تاريخه وعيا بذاته.بخصوص التسمية يزعم خصوم المعتزلة أن المؤسس واصل بن عطاء (ت 748هـ) اعتزل حلقة الحسن البصري إثر خلاف حول حكم الفاسق حيث اعتبروه ليس بمؤمن ولا كافر، بل في وضع وسط أطلق عليه "المنزلة بين المنزلتين".لقد اتخذ المعتزلة موقفا وسطا حول مسألة مرتكب الكبيرة، وذلك في انفصال عن التيارين السياسيين البارزين آنذاك، والممثلين فيالمحافظين والخوارج. إذا كان موقف الخوارج من مرتكب الكبيرة ينضبط لموقفهم السياسي بخصوص مسألة الفاسق حيث يتم تكفيره، وإذا كان المحافظون يرون بقاءه في جماعة الإسلام، فإنه بين الطرفين تكون مذهب الاعتزال كتيار محايد فضل الوسط. لقد أدخل أهل العدل والتوحيد في القاموس السياسي مفهوما جديدا "المنزلة بين المنزلتين"، وهو تصور صيغ حول مشكل سياسي هو شرعية الخلافة، خاصة عندما يتعلق الأمر بخلفاء فاسقين واستحضار فكرة الخلفاء الراشدين كمقارنة. ([25])

الجدير بالذكر في هذا السياق أنه لا يمكن اعتبار المعتزلة متحرري الإسلام وأنصار النقاش الحر والفكر الحر كما قد يصورهم البعض، نعم هم أكثر تحررا مقارنة بغيرهم باستخدامهم الحر للعقل في حقل العقيدة غير مهتمين بالآراء المحافظة، لكنهم كانوا معاندين وألزموا خصومهم بآرائهم بالقوة حيث استأسدوا خلال فترة المعتصم والمأمون ثم لاحقا تراجعوا بعد محنة ابن حنبل حول خلق القرآن. لقد حاولوا إقناع القضاة بليونة بالقول بخلق

[24]- Ibid, p. 45.
[25]- Ibid, p. 46.

القرآن، أما المعترضين فكان جزاؤهم القتل والسجن والتعذيب كحال ابن حنبل. لكن لاحقا، في عهد الخليفة العباسي المتوكل، هم من طردوا وحوكموا وكتبهم أحرقت وأموالهم أحلت، فوصلنا فقط مقاطع من كتبهم النادرة. لقد كان علم الكلام يغلي بحماس في بداياته مما جعله يتسخ بالدم. ([26])

بتتبع هذا المسار التاريخي، نضيف أنه سيظهر فيالقرن التاسع الميلادي، بالبصرة التي كانت مركزا ثقافيا رائدا، مذهب أبي الحسن الأشعري الفار من الاعتزال، ليصبح هو المذهب المعبر عن الإسلام الصحيح ([27]). من مظاهر تجديد أبي الحسننذكر دفاعه عن البدعة الحسنة، كما ننبه علىأنه قد أعلن في إبانته عند زيارته ودخوله لبغداد تحالفه مع الحنابلة الذين اعتمدوا على كلام الأشاعرة لرد تصورات الخصوم ([28]). بيد أنه سينشب صراع لاحقا بين الحنابلة والأشاعرة خاصة الحنابلة المتشددين الرافضين لبدع الأشاعرة لدرجة أن بعض الحنابلة حطموا شاهدة قبر الأشعري. إن تحرر الأشعري من المذاهب الفقهية جعله أقرب للتوفيق إذ لا يقدم تلامذته أنفسهم كأصحاب مذهب، بل كعودة للإسلام الأصيل فقط، "إذا كان تنزيه الخالق عن التجسيم أشعرية فإن كل المسلمين أشاعرة" ([29]). ولننهي هذه الوقفة مع تاريخ علم الكلام، نسجل أن الأشعرية قد انتصرت نهائيا على خصومها، معتزلة ومحافظين متشددين، مع نظام الملك، حيث انتشرت زمن السلاجقة في فارس ثم سوريا ومصر مع الأيوبيين والممالك، ثم في المغرب مع الموحدين ([30]).

2. دروس تاريخ علم الكلام:

أ. ملامح الكلام القديم

يمكن أن نختزل ثوابت وسمات علم الكلام في أربع عناصر، وهي كالآتي: تاريخية التشكل، الاصطباغ بالإيديولوجيا، الطبيعة التأويلية، والبعد التفاعلي.

---

[26]- Ibid, p.51.
[27]- Ibid, p.52
[28]- Ibid, p.54.
[29]- Ibid, p.55.
[30]- Ibid, p.. 62.

لبسط هذه العناصر، نقول عن تاريخية التشكل إن كل مقدمة لدراسة علم الكلام يجب أن تتوقف عند الروابط العضوية التي تربطه بالتاريخ السياسي والديني والثقافي، حيث لا يجب التوقف عند تسلسل الأطروحات والمدارس الكلامية، بل أيضا دراسة دلالتها وارتباطها بتاريخ العالم الإسلامي.إن علم الكلام هو خطاب نسج حول النص المقدس في سياق تاريخي، وهو ما أثر على الفهم والتلقي، وبغض النظر عن الجانب الأزلي للوحي وتنزيهه عن الزمن، فبالإمكان أن نجعل الوحي دائما خارج الزمن واصفين إياه بالأزلية، أو بقولنا: إن القرآن غير مخلوق، إلا أن هذا ليس حلا للإشكال؛ لكوننا نحن الذين نظل موجودين في الزمن. إن النص الذي يمثل المطلق يدخل إلى التاريخ، فيصير باستمرار متلائما مع فهم راهن.

في مستوى ثان، صاغ الإسلاملاهوته انطلاقا من مبدأين، هما: أولا، حل مشاكل عقدية طرحتها الصراعات السياسية، ثم ثانيا وهو الأهم للرد على هجومات المجادلين المسيحيين أو الثنويين أو اليهود، لذلك كان الكلام الإسلامي بطبيعة صدامية بحكم مولده دفاعا عن العقائد في وجه المخالفين والخصوم. كان المتكلم يشتغل تحت طائلة الإيديولوجيا، لكن بمجرد ما يبتعدعن النقاش في مسألة الإمامة تخف حدة الإيديولوجيا والتحكم والمراقبة([31]).لم يكن بإمكان القول الكلامي الاشتغال في استقلال تام عن الإيديولوجيا، ولم يكن للمراقبة الإيديولوجية أن ترخي قبضتها الحديدية الممسكة بتلابيب المتكلم ([32]). عموما، إن الثابت في التصورات الكلامية هو حضور المراقبة الإيديولوجية، والدليل هو تاريخ تشكل علم الكلام وتكونه في تاريخ الإسلام([33]).

ننبه في مستوى ثالث على الطبيعة التأويلية لعلم الكلام، فمن الثابت أنّ إشكالية التأويل قد شغلت المتكلّمة فيما عرضوا له من قضايا تهمّ الذات الإلهية وعلاقتها بالصفات الإلهية، إذ نعلم أنّه قام حول هذه القضايا جدل شديد وعنيف، بل ولربّما اعتبر الجدل في التأويل وطرقه وحدوده أخصّ ما تتمايز به المذاهب، وتتغاير به الأنظار. ومن نافلة القول التذكير بأنّ كلاًّ من المعتزلة والأشاعرة، بوصفهما أكبر الفرق الكلامية انتشاراً وأكثرها تأثيراً خلال لحظة

([31]) العلوي سعيد بنسعيد، الخطاب الأشعري مساهمة في دراسة العقل العربي الإسلامي، دار المنتخب العربي، بيروت، ط. 1، 1412هـ/1992م، ص. ص. 84-85.

([32]) نفسه، ص. 85.

([33]) نفسه، ص. 86.

الغزّالي، قد سارا إلى صياغة نظرية كاملة في مسألة التأويل، وأنّه قد وضع لها ضوابط من الممكن حصرها والإحاطة بها ([34]).

في مستوى رابع وأخير، اتسم علم الكلام ببعد تفاعلي عبر لقاءاته مع اللاهوت المسيحي أولا، ثم مع الفلسفة اليونانية ثانيا. إن صدى الجدل الكلامي الحاد مع المعتزلة، وكثرة الخلافات ذات الطبيعة العقائدية مع الباطنية، والتي تجسدت (عرفت تحققها) في أرض الممارسة السياسية، أضف إلى ذلك الصراع بين الحنابلة وأعلام الأشاعرة الكبار بدءا من الباقلاني، كلها أمور قد تصرف نظرنا عن رؤية بعد أساسي ومهم في الخطاب الأشعري، هذا البعد هو البعد التفاعلي، إنه خطاب يمثل لحظة لقاء بين الإرث الحضاري العربي الإسلامي من جهة، والآثار الثقافية اليونانية والفارسية والهندية الدخيلة ([35]).

ب. الصور الممكنة للكلام الجديد

يبدو أن نشأة مصطلح "علم الكلام الجديد" وظهوره لأول مرة يعود للمفكر الهندي شبلي النعماني (ت 1332هـ)، والذي وضعه عنوانا لكتاب له نقله إلى الفارسية محمَّد تقي فخر داعي كيلاني، وطبعه في طهران سنة 1329هـ/1950م، بالعنوان نفسه، وبذلك كان أول ظهور له بالفارسية بهذا التاريخ([36]). لقد رأى شبلي النعماني أن علم الكلام القديم كان يُعنى فقط بجانب العقائد في الرد على الخصوم، بينما التأكيد اليوم على الأبعاد الأخلاقية والتاريخية والاجتماعية في الدين، مِمَّا يدعو إلى إنتاج قول دفاعي في هذه القضايا، وبناء عليه ستضاف قضايا جديدة إلى القضايا التقليدية للكلام من قبيل حقوق الإنسان وحقوق المرأة والإرث والحقوق العامة للشعب، جنبا إلى جنب ومباحث وجود الباري والنبوة والمعاد والتأويل والعلاقة بين الدين والدنيا. توالت الكتابات في هذا الصدد، وأصبح هذا المصطلح رائجا في الدراسات الأُردية والفارسية، بحيث يبدو أن أول ظهور للمصطلح لدى الباحثين

([34]) نفسه، ص. ص. 158-159.

([35]) نفسه، ص. ص. 12-13.

([36])الرفاعي عبد الجبار، **مقدمة في السؤال اللاهوتي الجديد**، دار الهادي-مركز دراسات فلسفة الدين، ط5، بيروت، بغداد، 2005، ص31.

العرب كان مع فهمي جدعان سنة 1976 في كتابه: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي([37]).

بعد هذه الجولة مع علم الكلام التقليدي الكلاسيكي وتأكيدنا على عنصر التاريخية، وفيما يشبه تمهيدا لعلم الكلام الجديد، سيكون المدخل التاريخي والوعي بتاريخية فهمنا للدين أساسيا من بين مداخل أخرى كالانفتاح المنهجي.لقد كان من المفروض على الكلام الجديد أن يبحث لنفسه عن هوية في حوار مع الكلام الكلاسيكي كما تحقق في تاريخنا، فأمام مذهبية الكلام الكلاسيكي نجد الكلام الجديد اليوم بمسحة فردية في غياب لاتجاهات واضحة المعالم.

يبقى التجديد في علم الكلام، من وجهة نظرنا،متاحا على مستوى المبادئوالمناهج عبر النهل من مناهج الهيرمينوطيقاوالسيميائيات مثلا، وعلى مستوى المسائل بتحويل موضوعات الكلام من الذات والأفعال والصفات الإلهية إلى مباحث القيم وأسئلة الأخلاق. قد يجد الكلام الجديد في النزعة الإنسانية والانفتاح على قضايا العصر مجاله الحيوي الجديد والمتجدد، كما يمكن للكلام الجديد أن ينمو عبر التطرق لمواضيع من قبيل: حدود المعرفة الدينية والمعرفة الإنسانية، الثابت والمتحول في الدين، الدين والعلم، الدين والأخلاق، آفات الدين (العصبية، التطرف، العنف، المحافظة).

خاتمة:

ختاما،نسجل أن ما قدمناه في هذه الورقات، ليس أجوبة جاهزة بقدر ما هو عناصر للفحص والتأمل. إذا كان الكلام القديم قد امتاز بالمذهبية واليقينية، فإنه يبقى من الضروري على الكلام الجديد تغيير طبيعته من طبيعة صدامية دفاعية إلى طبيعة حوارية تفاهمية. لقد استطاع اللاهوت المسيحي أن يطور من مقولاته فوصل إلى إقرار الحوار الديني المفضي للاعتراف بالآخر، وإقرار إمكانية الخلاص غير المسيحي، ورغم إقرارنا بوجود تفاوت في القدرات اللاهوتية بين الكلام الإسلامي واللاهوت المسيحي حيث هناك تقدم في علم اللاهوت المسيحي على مستوى المفاهيم والقضايا، لكن يبقى الكلام الإسلامي غنيا بإمكانياته ومتاحه،

([37])جدعان فهمي، **أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث**، دار الشروق، ط3، عمان، الأردن، 1988، ص195 وما بعدها.

حيث سيكون الاصطباغ بالتأويل هو ما يضمن عدم غرق الكلام في أرثودوكسية صارمة، وهو ما حدث فعلا في عصور الانحطاط. لذلك لن نطلب من الكلام الجديد إلا أن يكون نفسه، أي كلاما في التأويل.

لائحة المصادر والمراجع:

- الرفاعي عبد الجبار، **مقدمة في السؤال اللاهوتي الجديد**، دار الهادي-مركز دراسات فلسفة الدين، الطبعة الخامسة، بيروت، بغداد، 2005م.
- العلوي سعيد بنسعيد، **الخطاب الأشعري مساهمة في دراسة العقل العربي الإسلامي**، دار المنتخب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1412هـ/1992م.
- جدعان فهمي، **أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث**، دار الشروق، الطبعة الثالثة، عمان، الأردن، 1988م.
- Gardet Luis, Anawati M. M. *Introduction à la théologie musulmane, essai de théologie comparé*e, Librairie philosophique Vrin, Paris, 1948.